«لا تَدعوني قُريشٌ اليومَ»

في السنة السادسة للهجرة ، وفي شهر ذي القعدة حدث هذا الحادث :

توجّه رسول الله ﷺ من المدينة المنورة إلىٰ مكة المكرمة ، ومعه سبعمائة من أصحابه ، وكان الهدف هو أداء العمرة ، ولا يريد حرباً .

وقد أحرم بالعمرة ، وساق معه الهدي ، وهو سبعون بعيراً ، وكان يخشىٰ أن تصدّه قريش عن البيت الحرام وتحاربه ، فحمل معه السلاح بأغماده ، حتىٰ إذا بلغ عُسْفَان قريباً من مكة ، لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1] ، قد لبسوا جلود النّمور ، وقد نزلوا بذي طوىٰ ، يعاهدون الله ، لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلىٰ كراع الغميم .

فقال الرسول ﷺ : «يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا ، قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد علىٰ الذي بعثني الله به ، حتىٰ يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة» .

ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسّير إلىٰ جهة أخرىٰ حتىٰ وصلوا إلىٰ ثنيّة المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فلما رأت قريش قتار الجيش ، علمت

---

(١) أي : النساء والصبيان .

أن الرسول ﷺ قد خالف الطريق ، فرجعوا راكضين إلىٰ مكة .

ولما وصل الرسول إلىٰ ثنية المرار ، بركت ناقته ، وألقت بجرانها علىٰ الأرض ، لا تريد النهوض ، فقال نفر من المسلمين : خلأت[1] القصواء .

فقال الرسول ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما هو لها بخُلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة» .

ثم قال : «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة ، يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها»[2] .

أجل يا رسول الله ، لقد صدق من وصفك بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .
[القلم : ٤]

إليكَ ربي سعىٰ قلبي بفطرته ... أقرّ في ذنبه من فرط خشيته
يا مالك الملك كلٌّ في جريرته ... رأىٰ قضاءك فينا رأي حكمته
أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقمِ
الله في نعمة الإسلام أدّبنا ... وللتقىٰ وجنان الخُلد قرّبنا
ندعوك سرّاً جهاراً لا تعاقبنا ... فالطُف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسفاً ولا تسُمِ

* * *

(١) أي : حرنت ، وامتنعت عن السّير .
(٢) صحيح البخاري : ٣/ ٢٤١ ، سيرة ابن كثير : ٢/ ٣١٨ .